الحياة الاجتماعية فى مكة المكرمة منذ مطلع القرن العشرين وحتى قيام الحرب العالمية الاولى 1900 ــ 1914

د. عبد اللطيف عبد الله بن دهيش

مكـة المكـرمة مدينة الاسلام الاولى ، وهي غنية عن التعريف وأهم معالمها الكعبة المشرفة والتي يتجه اليها المسلمون خمس مرات يوميـا ، وبهـا أيضا المسجد الحرام ، والمشاعر الاسلامية المقدسة ، وبذلك فان لها أهميـة كبـرى ومكانة عالية في قلب كـل مسلـم ومسلمـة ، وتاريخهـا حافـل بالاحـداث والانتصارات والانجازات، ففيها كتبت أول سطور التاريخ الاسلامي ، ومنها انبثق نور لاسلام .

وعندما خضع الحجاز تلقائيا للدولة العثمانية فى عـام 923 هـ. / 1517 م. أصبحت مكة المكرمة المركز الرئيسي لولاية الحجاز طوال الحكم العثماني والذى استمر أربعة قرون . وقد انتهى الحكم العثماني للحجاز بثورة الشريف حسين عام 1334 هـ. / 1916 م. وذلك بقيام مملكة الحجاز . وكان الحجاز مرتبطا ارتباطا وثيقا بمصر وخاصة أيام ولاية محمد علي ، لكن الحجاز فى هذه الفترة المعنية بالدراسة أصبح تحت الحكم المباشر للسلطان العثماني وذلك بعد أن احتلت بريطانيا مصر فى عام 1300 هـ. / 1882 م.

وفى إطار سياسة السلطان عبد الحميد الثاني (1293 ــ 1327 هـ. / 1876 ــ 1909 م.) حظى الحجاز باهتمام كبير وعناية فائقة من السلطـان العثمـاني ويتضح ذلك فى أعماله الكثيرة والتي من أهمها :

1 ــ اصلاح مباني الحرمين الشريفين .

2 ــ إنشاء سكة حديد الحجاز .

3 ــ زيادة الاموال والهبات المخصصة للحرمين الشريفين .

4 ــ ربط الاحكام وعقوبات السجن الطويلة والنفي أو القتل التي يصدرها الاشراف أو الولاة فى الحجاز بموافقة المجلس الأعلى للقضاء باسطنبول والذى كان مقره فى اسطنبول ، كما أنه لا بد من تتويجها بموافقة السلطان العثماني، مما جعل السلطة فى الحجاز مرتبطة ارتباطا وثيقا بالسلطان ، فحد بذلك من تسلط الولاة .

وعندما أعلن الدستور العثماني الجديد فى عام 1326 هـ. / 1908 م. لم يطرأ أي تغيير على السياسة العامة فى مكة المكرمة بل فى الحجاز بكامله الا ما اقتضاه نص الدستور من تمثيل البلاد الخاضعة للدولة العثمانية فى مجلس المبعوثين الذى أنشأ بموجب الدستور ليشرف على شؤون الولايات .

وبعد استيلاء الاتحاديين على السلطة في الدولة العثمانية وعزل السلطان عبد الحميد الثاني في عام ١٣٢٧ هـ. / ١٩٠٩ م. بدأت التحركات، وتأسست الجمعيات فعمت الثورات والاضطرابات في مختلف الولايات، وكان نصيب الحجاز من تلك الاضطرابات كبيرا جدا، فلم يأت عام ١٣٣٢ هـ. / ١٩١٣ م. حتى تعاقب على ولاية الحجاز أربعة ولاة هم: كاظم باشا وحازم باشا وفؤاد باشا وأحمد نديم، وفي نفس الوقت تأسس في مكة المكرمة فرع لجمعية الاتحاد والترقي ومدرسة تابعة لها، كما أن جمعية الاتحاد والترقي قررت ندب أحمد جمال باشا وزير البحرية العثمانية الى سوريا ليتولى ادارتها العسكرية، ومنحوه صلاحيات واسعة، شملت سوريا ولبنان وفلسطين، وامتدت الى الحجاز واليمن. ثم ندبوا في نفس العام وهيب بك واليا على الحجاز وأمروه بأن يخمد التحركات هناك، ويعمل على تقليص وتحديد صلاحيات الشريف الادارية في المنطقة. وقد رفض الشريف جميع تلك الاجراءات وأخذ يلتمس المساعدات من بعض الدول الكبرى. وفي تلك السنة قامت الحرب العالمية الاولى فاضطربت الاحوال في الحجاز بشكل كبير.

والبنية السكانية لهذه المدينة تتكون في معظمها من الاشراف والقبائل العربية الموجودة في منطقة الحجاز وبقية مناطق شبه الجزيرة العربية، وهناك بعض الوافدين من الدول العربية والاسلامية الذين قدموا للحج أو للعمرة ثم استوطنوا في مكة المكرمة.

والاحصائيات السكانية لمكة متوفرة خلال هذه الفترة، لكنها مختلفة اختلافا كبيرا في تقديراتها لعدد السكان، كما أنها في الحقيقة مبنية على التخمين، ولا تعتمد أساسا على بيانات احصائية دقيقة أو وثائق رسمية علاوة على أنها ربما تكون قد أخذت في فترة الحج وهي الفترة التي تكون فيها مكة مكتظة بالحجاج، كما أن معظم هذه الاحصائيات عن كامل منطقة الحجاز وليس عن مكة فقط، ويهمنا هنا الاحصائيات الخاصة بمكة والتي تتحدث عن الفترة المعنية بالدراسة، فقد ذكر ابراهيم رفعت أن سكان مكة في عام ١٣١٨ هـ. / ١٩٠٠ م. يقدرون بـ ١٢٠،٠٠٠ نسمة (١) وجاء ذكر نفس الرقم في التقرير البريطاني الذي صدر في عام ١٣٢١ هـ. / ١٩٠٣ م.، وربما اعتمد على الاحصائية السابقة للاستاذ ابراهيم رفعت (٢). وعندما زار الاستاذ / محمد لبيب البتنوني مكة في عام ١٣٢٨ هـ. / ١٩١٠ م. ذكر أن عدد سكانها يقدرون بـ ١٥٠،٠٠٠ نسمة (٣). وأهل مكة كلهم من المسلمين، ولا يدخلها غير مسلم وذلك منذ السنة التاسعة للهجرة.

---

(1) مرآة الحرمين، (القاهرة : 1925م) جـ 1، ص : 203، ص ص : 438–439. و جـ 2، ص : 12.

(2) F.O. 195/2148, Report on Hijaz Villayat, p. 2.

(3) الرحلة الحجازية، (القاهرة : 1911م)، ص : 40.

والاعمال التى يزاولها السكان فى تلك الفترة فى مكة المكرمة متعددة ، وتعتبرمن أهم الموارد الاقتصادية لهم . وأهم تلك الاعمال : خدمة الحجاج والمعتمرين والتي يقوم بها في الغالب فئة المطوفين وعمالهم ويقومون عادة بتأمين سلامة وراحة الحجاج من مسكن ومأكل ونحوهما ، وتسهيل سبل أداء مشاعرهم الدينية ، مقابل مبلغ محدد من المال ، يدفعه الحاج عند وصوله الى مكة • وهنالك فئة العلماء وطلابهم فى المسجد الحرام ولهم مخصصات سنوية من الدولة العثمانية تأتي ضمن الصرة (1) وفئة الموظفين والذين يتقاضون رواتب شهرية من صندوق الولاية الذى هو فى يد الوالى ومقره مكة . كما يعمل بعض السكان بالزراعة في الاودية المحيطة بمكة ، وخاصة فى منطقة العابدية والحسينية ، ووادى فاطمة والشرائع ، وتقوم البادية عادة بالرعى وتربية الماشية فى المناطق الصحراوية المحيطة بهذه المدينة •

ويعمل بعض السكان بالتجارة والصناعة اليدويه الخفيفة وخاصة صناعة المشربيات والاسقف الخشبية بمختلف أحجامها وأشكالها الفنية ، وقد نمت هذه الحرفة في العهد العثماني وروعي فيها الاتقان والابداع مع الالتزام بالمنهج الاسلامى فى الزخرفة والنقش ، وبجانب هذه الصناعة هنالك صناعات يدوية اخرى كصناعة الحلى والفخار •

وكانت ولاية الحجاز والتى تضم مكة المكرمة معفاة من قبل الدولة العثمانية من تقديم أى نوع من الضرائب أو الرسوم ، كما كان عليه الحال أيام المماليك بل علاوة على ذلك فان الدولة العثمانية كانت تقدم المساعدات والهبات النقدية والعينية لحكام مكة وعلمائها وفقراء الحرمين الشريفين ، كما تدفع رواتب موظفيها وجنودها المرابطين فى مختلف المدن والثغور الحجازية ، وتأتى هذه المساعدات والهبات عادة مع المحمل المصرى أو الشامى الذى يحمل بجانب الصرة كسوة الكعبة المشرفة ، وكان قدومهما عادة فى موسم الحج من كل عام • وبجانب ذلك كان يرد الى مكة ريع أوقاف الحرمين الشريفين الموجودة فى مختلف البلدان العربية والاسلامية وخاصة مصر ، والذى يتم توزيعه على العاملين فى الحرمين الشريفين والفقراء فى هاتين المدينتين • كما يرد اليها أيضا بعض المساعدات والهبات من تجار الهند المسلمين لدعم بعض المؤسسات التعليمية التى أسست فى مكة مثل المدرسة الصولتية ، والمدرسة الفخرية العثمانية ، ومدرسة دار الفائزين ، وبعض الاربطة التى خصصت لسكن الفقراء •

وتلتقى فى مكة المكرمة طرق القوافل التى تنقل التجارة من الشمال الى الجنوب والعكس ، وقوافل الحجاج الذين يفدون اليها من كل فج لاداء فريضة الحج ، وترتبط هذه الطرق بمينائى جدة وينبع واللذين يعتبران النافذة التى

---

(1) الصرة : مجموعة الأموال الخاصة بريع أوقاف الحرمين في مصر والتي ترسل عادة مع كسوة الكعبة لتوزيعها على فئات معينة من سكان الحرمين الشريفين .

تطل منهما مكة المكرمة والمدينة المنورة على العالم الخارجي . كما أن الحجاز يرتبط بسكة حديدية تصل من الشام الى المدينة المنورة والتى تم افتتاحها فى عام 1326 هـ / 1908 م.

وتحتفل مكة المكرمة كغيرها من المدن الاسلامية بالاعياد والمناسبات الدينية ومن هذه الاعياد والمناسبات عيد الفطر المبارك وفيه يتجه معظم السكان وعلى رأسهم الشريف والوالى العثمانى والعلماء الى المسجد الحرام ، حيث يؤدون صلاة العيد ويستمعون الى خطبة العيد التى يلقيها عادة المفتى الحنفى فى مكة أو قاضيها ، وقد لبسوا أحلى ما لديهم من ثياب ، أما عيد الاضحى المبارك فليس فيه نفس المظاهر التى نشاهدها فى عيد الفطر وذلك لان معظم سكان مكة وعلى رأسهم الشريف والوالى يذهبون الى المشاعر المقدسة لاداء مناسك الحج ويكونون فى أول أيام التشريق فى منى وبعضهم يؤدى صلاة العيد فى مسجد الخيف فى منى ، أما من تخلف عن الحج فيؤدى صلاة عيد الاضحى المبارك فى المسجد الحرام بمكة المكرمة ولكنهم قلة . وهناك مناسبات دينية عديدة من أهمها إحياء ليالى شهر رمضان بالصلاة والذكر فى المسجد الحرام والمساجد الاخرى بمكة ..

ومن المناسبات السعيدة مناسبة الزواج وتسير حسب الشريعة الاسلامية ، فتبدأ بالخطبة ثم عقد النكاح فالزواج ، وتتم عملية الزواج حسب مراسم ومظاهر معينة فبعد الخطبة وعقد النكاح يبدأ أهل العروس فى شراء ما يلزم للبنت من حلى ويبدأ العريس فى تجهيز بيت الزوجية وهو فى الغالب لا يعدو أن يكون غرفة أو مجموعة غرف بمنافعها فى منزل والديه ، وهذا يدل على ترابط الاسرة وتماسكها ، وقليل منهم من يخرج عن بيت والديه بعد الزواج مباشرة ، وتحدد بعد ذلك ليلة العرس ويتم تجهيز الولائم والتى تحتوى على الارز واللحم والمشبك والطرنبة والسمبوسة ، وتنصب البرزة وهى عبارة عن كراسى خشبية مفروشة وفى عقدمتها تنصب أقواس خشبية مزركشة وتكون عند باب منزل العروس . وبعد صلاة العشاء يسير العريس على الاقدام من منزله ومعه والده وأخواته وأقاربه ومن دعى من جانبه لهذه المناسبة ومعهم المعاشر (1)والتى بها الحلوى ، وتحمل الاتاريك لاضاءة الطريق ويسير الجسيس (2) برفقة العريس ووالده ويردد بصوت عال بعض الادعية والاناشيد الخاصة بهذه المناسبة ، وعند وصولهم الى بيت العروس يستقبلهم والدها وأقاربها بالترحيب ، أما النساء فيستقبلن العريس بالزغاريد ، ثم تقدم الولائم للمدعوين وبعد ذلك يذهب الجميع الى منازلهم . وعادة يحيي النساء تلك الليلة بكاملها فى فرح ، وفى اليوم الثانى تنتقل الزوجة الى بيت زوجها ويقيم لها زوجها وليمة غداء بهذه المناسبة يدعو لها الاقارب من أهله وأهلها

(1) وعاء كبير من الخشب على شكل مثمن تحمل فيه الحلوى ويسار به في موكب العريس .
(2) الجسيس : الشخص الذى يردد الأدعية والأشعار في موكب العريس بصوت عال .

والاصدقاء (1) . ومن الاحتفالات أيضا الاحتفال بختم القرآن الكريم أو بعض أجزائه ويسمى هذا الاحتفال بالصرافة أو القلابة وتتمثل فى أن يقيم والد الطالب الحافظ للقرآن وليمة غداء يدعو اليها شيخ الكتاب وجميع الطلاب ويقدم والدا الطالب هدية قيمة للشيخ وهى عبارة عن ملابس ومبلغ من النقود ، ويطلب من الطالب الحافظ أن يتلو قبل تناول الغداء أو بعده بعض ما حفظه من القرآن بصوت عال أمام والده وأستاذه وزملائه من الطلاب والمدعوين حتى يبرهن لهم على صدق حفظه (2) . وهناك حفلات الختان والتى تتم فى اليوم السابع أو الشهور الاولى من ولادة الطفل ، وكذلك حفلات السابع للمولود الجديد من ذكر وأنثى ، فيقيم والد المولود وليمة بهذه المناسبة يدعو لها الاهل والاقارب ، وعادة يذبح شاة أو اكثر فيتصدق بجزء منها ويولم بالجزء الآخر

وأهل مكة لهم ولع بالتنزه والخروج الى الضواحى وخاصة فى الاعياد والاجازات والمناسبات السعيدة ، فيخرجون فى مواكب كبيرة على الدواب الى الجعرانة ، والحسينية ، والسنوسية ، والعكيشية ، وسوله ، والزيمة ، ووادى فاطمة ، ومنطقة الشهداء ، أو بعض البساتين المحيطة بمكة يحملون معهم أنواع عديدة من الاطعمة والفواكه الشهية ، فيقيمون هنالك يوما أو عدة أيام مليئة بالافراح والالعاب الشعبية ، يعودون بعدها بروح نشطة وراحة بال ، ولم يكن للنساء مجال واسع فى مثل هذه التنزهات (3) .

ومن عاداتهم فى مثل هذه الاحتفالات تقديم الشاى والقهوة والاطعمة المختلفة فى صنعها وطعمها ، فمنها الطعام الحجازى والهندى والشامى و المصرى والتركى والمغربى . وتقدم الاطعمة عادة على أصمطة مفروشة على الارض فى شكل صفوف يجلسون حولها . وبعد فراغهم من الطعام يخلدون للراحة بعض الوقت ، ثم يجلسون للسمر يستمعون الى الاشعار التى يقدمها بعض الاشخاص من أصحاب الصوت الحسن (4) . ويقوم بعضهم بمزاولة بعض الالعاب الرياضية أو الرقصات الشعبية مثل (المزمار) وهو من الالعاب المفضلة التى لا تكاد تخلو منه أى احتفالات أو أفراح فى مكة المكرمة ، وتستعمل فيه الطبول والعصى ، وتشعل النار فى وسط حلبة من الرجال الاقوياء ، بينما يرقص بعضهم رقصات شعبية بالعصى فى وسط تلك الحلبة (5) .

---

(1) أحمد عبد الاله عبد الجبار : عادات وتقاليد الزواج في الحجاز (الطبعة الأولى – جدة ، منشورات تهامة : 1403هـ / 1983م) ص 165–203 .

(2) عبد اللطيف بن دهيش : الكتاتيب في الحرمين الشريفين وما حولهما ص : 53–55 .

(3) أحمد السباعي : تاريخ مكة ، جـ 2 ، ص : 196 .

(4) محمد لبيب البتنوني : الرحلة الحجازية ، ص 49 .
وأحمد علي : ذكريات (من مطبوعات نادى الطائف الأدبي ، الطائف مطابع الزايدى للأوفست : 1397هـ) ، ص : 18–20 .

(5) أحمد علي : المصدر السابق ، ص :

ومن الالعاب الرياضية التى كان يزاولها السكان فى مكة المكرمة فى تلك الفترة ، لعبة (الكبت) وكان اللاعبون لها ينقسمون الى فريقين ويوضع خط فاصل فى نصف مساحة مكان اللعب ، الذى لا يزيد فى العادة عن 6 × 14 متر. وعندما يتقدم أحد الفريقين فيجتاز الخط الفاصل الى داخل المساحة المخصصة للفريق الآخر محاولا لمس أحد لاعبى الفريق الثانى ، حيث يتحاشى أفراد هذا الفريق أن يلمس أحدهم ، فتبدأ عندئذ المحاورة بين أفراد الفريقين وكل واحد منهم يحاول لمس أحد افراد الفريق الآخر فى منطقته . فاذا استطاع لمس أحدهم فى يده عاد مسرعا الى منطقة فريقه وهو يقول بصوت عال (كبت) بفتح الكاف والباء وسكون التاء . وهذه اللعبة تعتمد على سرعة الحركة وليس فيها غير المحاورة وعدم تمكين المهاجم من الفريق الآخر لمس فرد من الفريق المواجه .

ومن الالعاب الشعبية أيضا لعبة (البربر) بكسر الباء وسكون الراء فى الحروف الاربعة التى تتكون منها الكلمة . وهذه اللعبة كانت تؤدى بالقدم اليمنى . ووصفها أن يتم وضع قطعة صغيرة مستديرة من الفخار فى الارض . وتوضع حفر صغيرة معينة فى اماكن متفرقة من الملعب الذى لا تزيد مساحته عن 3 × 8 متر ، ثم يقوم اللاعب بدفع القطعة الى أحد حفر الملعب بقدمه اليمنى بعد أن يرفع قدمه اليسرى الى الركبة ويمسكها بيده اليسرى أحيانا فيؤدى اللعبة بقدم واحدة وهو يحجل ، حيث يسير فى الملعب برجله اليمنى التى يدفع بها قطعة الفخار الى احدى الحفر الصغيرة التى فى الملعب ، وعليه أن يحفظ توازنه لئلا يقع (1) .

وفى مكة المكرمة أنواع من الاطعمة اللذيذة التى اشتهرت بها هذه المدينة المقدسة عن غيرها من مدن شبه الجزيرة العربية ، ويظهر أن أهل مكة استفادوا من الوافدين اليها من مختلف البلاد العربية والاسلامية خلال المواسم الدينية ، فاقتبسوا منهم طرقا كثيرة لاعداد الاطعمة ، ولذلك تنوعت لديهم الاطعمة ، والمائدة فى بيوت أهل مكة كانت تتكون غالبا من الارز واللحم والخضروات والفطائر والسلطات والفواكه الموسمية المحلية ، ومن أهم الاطعمة التى تقدم فى المناسبات طعام يطلق عليه (السليق) ويتألف من اللحم أو الدجاج المسلوق والارز المطبوخ على ماء اللحم والمضاف اليه الحليب ، وهنالك أيضا (الزربيان) أو (البريانى) ويتكون من الارز واللحم أو الدجاج مضافا اليه مجموعة مختارة من البهارات والكرى والزعفران ، ومن الاكلات أيضا (البخارى) ويتكون من الارز مع اللحم أو الدجاج مع قليل من البهارات ، ولا يدخل فيها الكرى ، وهنالك الكوزى مع الارز والمندي مع الارز ، ويتم طبخهما عن طريق شوي الخروف بعد ذبحه وسلخه وتنظيفه فى أفران تكون بداخل

(1) محمد علي مغربي : ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز (الطبعة الأولى ، جدة ، مطبوعات تهامة : 1402هـ / 1982م) ، ص : 254–256 .

الارض ، وغالبا تكون هذه الافران معمولة من الفخار ، ويطبخون الارز بالحمص فى المأتم فقط .

أما المائدة اليومية فى كثير من البيوت فى مكة المكرمه فتتكون عادة من الارز المطبوخ مع اللحم ، وأحيانا يطبخ اللحم منفصلا عن الارز مثل الكباب والكبيبة والمقلقل والمعوق ، والخضروات وهى فى الغالب من الخضروات التى تزرع محليا مثل : (الملوخية البامية الفاصوليا بنوعيها الاخضر والناشف) ، ويتفننون فى صنعها من بيت الى آخر .

أما الفطائر فأهمها (السمبوسك والبف) وتتكون من لحم مفروم ملفوف فى عجينة يضاف اليها أحيانا البيض والتوابل ، وتكون السمبوسك مثلثة الشكل ، أما البف فيكون أكبر من السمبوسك وشكله مربع أو مستطيل ، وهنالك أيضا الزلابية وهى من العجائن المطبوخة فى شكل أقراص ، واللقيمات وتصنع أيضا من العجائن ولكن على شكل كرات صغيرة وكلها تغلى بالزيت . ومن الحلويات الكنافة والدبيازه والمشبك والخشاف والماسية والمهلبية والسمسمية والجبنية واللدو وغيرها ، وتتكون السلطات من الخيار والطماطم والخس والجرجير المضاف اليه الليمون ، وهناك أيضا سلطة الخيار باللبن ، وسلطة الطماطم المطحون مع الفلفل . أما الفواكه فهى متوفرة فى مكة وأهمها الحبحب والبطيخ والشمام ، وهنالك فواكه تأتى من الطائف وبعض بلدان الحجاز من أهمها : العنب والرمان والموز والبرشومى (التين الشوكى) والتفاح والمشمش والتين والخوخ وغيرها ، وغالبا تقدم هذه الاطعمة فى الوجبة الرئيسية وهى وجبة الغداء . أما وجبة الافطار فتكون خفيفة وتتكون فى الغالب من العسل البلدى والبيض البلدى والفول والحليب واللبن الرائب ، وتقدم كلها مع الخبز البلدى (التميس أو الكعك) . وفى بعض البيوت يأكلون المعصوب أو الهريسة . وقد وجدت بعض الحوانيت التى تقدم بعض تلك الاطعمة مثل الفول والمعصوب والهريسة .

وفى المساء يتناول الاهالى أطعمة خفيفة أيضا مثل اللبن الرائب والحليب والبيض والفول وحلوى الطحينة أو المفروكة (1) أو فطائر المطبق أو السمبوسة وغيرها . ومن النادر أن تجد الاسماك الطازجة فى مكة المكرمة وذلك لبعد المسافة بينها وبين مدينة جدة الواقعة على ساحل البحر الاحمر ، ولكن توجد بعض الاماكن التى تبيع السمك أو الجمبرى المجفف . وكان السيد حسن عشي من أشهر الطباخين فى مكة المكرمة وكان يقوم باعداد الاطعمة فى المناسبات المختلفة للسكان ، وكان لديه مطبخ كبير به جميع الاستعدادات ، وقد أخذ عنه أبناؤه الثلاثة هذه الصنعة . ولم يكن حسن عشي هو الطباخ الوحيد ولكن وجد بمكة عدد كبير من الطباخين ، ذلك لان عملية الطباخة يحتاج

(1) نوع من الحلوى تتكون من حلوى الطحينية والهريسة يخلطان معا .

اليها المطوفون ، وذلك فى أيام الحج لتقديم الوجبات المناسبة لحجاجهم ، خاصة فى منى وعرفات ، ولذلك وجد بها مجموعة من الطباخين المهرة .

وبما أن مكة المكرمة يفد اليها أعداد كبيرة من المعتمرين أو الحجاج طول العام فقد وجد بها عدد كبير من الحوانيت التى تبيع الاطعمة والخبز بأنواعها لهم . كما وجد بها أيضا عدد من المقاهى تقدم الشاى والقهوة لهؤلاء مقابل مبلغ زهيد من المال .

والاشربة التى كانت مشهورة فى مكة وفى غيرها من مدن الحجاز هى الاشربة التى كانت تلائم الجو الحار ، وذلك لان مناخ مكة مناخ حار جدا صيفا لطيف فى الشتاء .

ومن تلك الاشربة : شراب (السوبيا) ويصنع من الخبز الناشف والماء والسكر ، وشراب (الزبيب) ويصنع من الزبيب الجيد المعصور ويضاف اليه الماء والسكر ، وشراب الحمر (التمر الهندى) ويتم صنعه بأن ينقع الحمر فى الماء ثم يصفى ويخرج النوى من داخله ويضاف اليه الماء والسكر ، وشراب القرفة والزنجبيل ، شراب الخروب وشراب الليمون وغيرها (1) . وتعتبر القهوة العربية والشاى من المشربات الرئيسية فى مكة المكرمة ويستعملون أيضا النعناع والشاى الاخضر ، وتقدم هذه المشروبات حارة وفى أى وقت ، ولا بد من تقديمها للضيوف كمظهر من مظاهر الترحيب بهم فى كل المناسبات، ويقدمون معها أحيانا التمر أو الحلوى . ويستوردون القهوة من اليمن وأحسن أنواعها قهوة مخا . أما الشاى فيستوردونه من الهند وبلدان جنوب شرق آسيا ، وكذلك يستوردون الشاى الاخضر ، أما النعناع فيزرع محليا .

ومن مظاهر هذه الفترة اختلاف أزياء العلماء والحكام عن العامة فكان الشريف يلبس الملابس التى خلعها عليه السلطان العثماني وكذلك يفعل الوالى وبقية حكام المناطق . أما الجند فيلبسون نفس الملابس التى يلبسها جند الدولة بمختلف مراتبهم العسكرية .

وكانت الجبة التى تلبس فوق الثوب والعمامة التى تلبس على الرأس هى لباس العلماء ، ويميل لباس العلماء الى الالوان الفاتحة وخاصة اللون الابيض بينما تكون ألوان جبة الحكام وأصحاب المناصب الرفيعة تميل الى الالوان الداكنة والمزركشة . ويلبس الطلاب الملابس العادية الخفيفة مع غطاء للرأس بالكوفية أو الطاقية ، وأحيانا يلبس الطلاب الجبة والعمامة وخاصة الذين هم على عتبة التخرج . أما فئة العمال فيلبسون الثياب الملونة بالوان زاهية فيها الازرق والاصفر والاحمر ، والقليل منهم من يلبس الملابس البيضاء ، وذلك لانها سريعة الاتساخ ، ويضعون حزاما من القماش يشدون به وسطهم ليزيد

(1) للمزيد من المعلومات انظر محمد علي مغربي : ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز ، ص : 219—241 .

فى صلابتهم أثناء العمل كما يتوهمون . أما فئة التجار فيلبسون الثياب الفاخرة ويلبسون عليها معطفا قصيرا فاخرا يعرف بالسدرية أو (ميتان) . وكان السكان يعنون بنظافة ملابسهم ويقومون بغسلها وصقلها بقطع ناعمة من الودع وخاصة الحكام والعلماء والتجار والطلاب (1) .

أما النساء فيلبسن ما يشأن من الملابس ، وكانت أهم تلك الملابس الصديرية والكرتة والمحرمة والمدورة للرأس والملاية والبرقع . وعند خروجهن من بيوتهن يلبسن الملاية والبرقع أو العباءة ، وعليها ستر جميع جسمها بالملاية أو العباءة . وينتعل الرجال الخف ، وهناك نوع خاص بالنساء ومعظم الاحذية تصنع محليا وبعضها يجلب من مصر أو الشام أو الهند (2)

واهتم أهل مكة بخدمة الحجاج والمعتمرين وبذلك اتسع نطاق الطوافة فى هذه الفترة المعنية بالدراسة وزاد عدد المطوفين . وكان الحج مسموحا به لسكان البلاد الاسلامية الخاضعة للدولة العثمانية أما غيرهم فان عليهم التقدم بطلبات خاصة للحج واتخاذ الاجراءات اللازمة لذلك . وبالرغم من ذلك فان اعداد الحجاج كانت قليلة جدا وذلك لان الحج لم يكن ميسورا بل كانت تحيط به الكثير من المخاطر والمصاعب ، ويتعرض الحجاج فى كثير من الاحيان للسلب والنهب والقتل على يد بعض الطامعين .

وكان معظم الحجاج يأتون للحج بطريق البحر وعند وصولهم الى جدة أو ينبع تقف مراكبهم فى عرض البحر بعيدا عن الساحل ، وينزل الحجاج منها فى زوارق شراعية تأخذهم الى الميناء الذى كان صغيرا جدا . وهنالك يسأل كل حاج عن مطوفه ثم يأخذهم وكلاء المطوفين الى مراكزهم فى جدة أو ينبع ، ولا تزيد إقامتهم هناك عن أيام قليلة ينقلون بعدها الى مكة المكرمة بواسطة الابل المحمول عليها الشقادف (3) . أو الشبارى (4) .

وعند وصولهم الى مكة المكرمة ، يقوم المطوفون بانزال حجاجهم فى بيوتهم ، أو فى بيوت خاصة قريبة من المسجد الحرام أعدت لهذا الغرض ، وتقديم الضيافة اللازمة لهم ، من مأكل ومشرب ، والاشراف على ذهابهم الى المسجد الحرام لاداء الصلوت الخمسة فيه أو الطواف بالكعبة المشرفة . ويخرجون عادة فى شكل مجموعات يقودها المطوف بنفسه ، أو أحد أبنائه أو أحد العاملين

---

(1) أحمد السباعي : تاريخ مكة ، ج 2 ، ص : 194—198 .
(2) أحمد السباعي : تاريخ مكة ، ج 2 ، ص : 194—199 .
(3) الشقادف مفردها شقدف وهي مراكب خشبية صغيرة توضع على ظهور الجمال ، ومكونة من جزئين يجمع بينهما بحبل ، ويعتبر المركب الوحيد في ذلك العصر لمن يريد الانتقال من مكان الى آخر براحة وسلام واتقاء البرد في الشتاء والحر ووقدة الشمس في الصيف . وللشقادف عدد من النجارين المتخصصين في صناعتها في مكة المكرمة يقومون باعدادها للحج قبل موسمه .
(4) الشبارى : وهي عبارة عن سرير خشبي واسع عليه مضلة من الخسف أحيانا ويختلف عن الشقدف بأنه مفتوح من جميع الجوانب .

معه ممن يحفظون الادعية المأثورة وخاصة عندما يطوفون بالكعبة المطهرة ، ولم يكن أحد يعرف شيئا عن الفنادق . أما الحجاج الفقراء من شبه القارة الهندية وبعض الجنسيات الاخرى فينزلون عادة فى الاربطة والتكايا الموجودة باسمهم فى مكة والتى أوقفها أصحابها لخدمة الفقراء من الحجاج وعادة ما تكون مزدحمة بالنزلاء (1) ويتم فى هذه الاربطة والتكايا تقديم المسكن مجانا للنزلاء ، وأما المأكل والمشرب فيتحمله الساكن ، ومنها رباط الداودية وكان فى باب العمرة ، ورباط السليمانية بباب دريبة ، ورباط محمد باشا بباب زيادة وغيرها (2) . وسعى أشراف مكة بالتعاون مع السلطة العثمانية الى تنظيم عملية الطوافة وتم توزيع البلاد العربية والاسلامية على مطوفين فكان كل مطوف مسؤولا عن البلاد التى خصصت له . ولذلك صدر فى سنة 1326 هـ. الموافق 1908 م. قرار ادارى يحدد تعرفة الحجاج ، وقد نشر هذا القرار في جريدة (الحجاز) وهو كما يلى :

عدد	
1	جنيه عثماني أجرة مسكن بمكة للجاويين .
2	جنيهان عثمانيان اكرامية مطوف وضيافة فى عرفات ومنى . ومن توفى قبل الوقوف بعرفة فعليه نصف المقرر .
10	عشر ربيات هندية اكرامية المطوف لعموم أجناس الهند .
2	جنيهان عثمانيان على الداغستان اكرامية مطوف وأجرة خيمة فى عرفة ومنى وبيت مكة .
5	خمسة ريالات مجيدية على حجاج مصر والشام والمغرب اكرامية المطوف .
2	ريالان مجيديان على حجاج الصعيد وغزة والعراق والاكراد .

وعلى كل حاج عدا ما ذكر أن يدفع لمطوفه اكرامية جنيه عثمانى واحد للميسور ونصف جنيه لمتوسط الحال .

واشتهرت مكة المكرمة بكثرة بيوت العلم فيها ومن تلك البيوت بيت الفدا وآل عبد الشكور . وآل زرعة وآل السقاف وآل عجيمي وآل الدهان وآل كمال وآل كتبي والمالكي من المغرب وآل عطا من مصر وآل مشاط واللبني عرب وآل الطبرى وآل الشيبي وهم سدنة الكعبة المشرفة ، والدحلان والنقشبندى والأفغاني وآل فهد والسنوسي والرهبيني والحبشي والعطاس والكوجك ومنهم السيد حسن كوجك من أئمة الأحناف ، وأعتقد أنه من أصل تركى . وآل بابصيل وآل باجنيد وآل باسنبل وآل مرداد . وقد أورد الشيخ

(1) أحمد علي : ذكريات ، ص 32 .
(2) محمد طاهر كردى : التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم ج 2 ، ص : 139 .

عبد الله أبو الخير ، فى كتابه نشر النور والزهر عرضا مفصلا لتراجم أشهر علماء مكة . كما كتب الاستاذ عمر عبد الجبار كتابا عن علماء مكة سماه سير وتراجم علماء المسجد الحرام ويصل فيه الى أواخر النصف الاول من القرن العشرين . كما كتب الشيخ عبد الله غازى كتابا وافيا عن علماء مكة ولا يزال هذا الكتاب مخطوطا .

وكان أمر الفتوى فى مكة تختص به بعض بيوت العلم من المذاهب الاربعة ، ويرأسهم مفتى الاحناف ، وذلك بتأييد من السلطان العثمانى أما القضاء فكان يتولى منصبه فى مكة علماء الاتراك الذين تندبهم الدولة وكانت أحكامهم مرتبطة بمشيخة الاسلام فى اسطنبول ، فهو يمثل سلطة الاتراك الدينية ويرأس الحفلات التى يتم فيها تنصيب أمراء جدد لمكة كما يعقد المراسم الخاصة بذلك ، ويتولى تقديم الخلع السلطانية الى الامير ، كما أنه يقوم بالخطبة فى الحج . وقد وجدت فى محكمة مكة مكتبة بها كتب كثيرة فى الفقه الحنفى وبعض الانظمة القضائية باللغة العثمانية المستعملة فى ذلك الوقت ويظهر أنها جلبت من اسطنبول ووضعت هنالك ليستعين بها القضاة العثمانيون فى مكة وغيرها فى أحكامهم . وكان التدريس يتم على يد العلماء فى المسجد الحرام وبمختلف اللغات ، فيجلس الشيخ وحوله الطلاب فى شكل حلقات علمية وكل شيخ يدرس العلم الذى تخصص فيه ، وباللغة التى يتقنها . كان بالمسجد الحرام أكثر من أربعين حلقة علمية مختلفة الاحجام والتخصصات ، كما أن التدريس يتم فى كل وقت صباحا ومساء وقد أحصى الشيخ حسين باسلامة فى كتابه عمارة المسجد أن بالمسجد الحرام بمكة فى تلك الفترة 1422 قنديلا عدا ما جعل فى المنائر ، جلبت كلها من مصر واسطنبول (1) . من عادة شريف مكة أن يجلس للحكم فى دار الامارة صباح كل يوم وحتى قبيل العصر فتعرض عليه المسائل الهامة ، وهنالك يستعد للتوجه الى الحرم الشريف فى موكب بسيط فيصلى العصر فيه . وكثيرا ما يجلس بالمسجد الحرام حتى يصلى المغرب ، ثم يعود الى قصره فيتناول طعام العشاء مع من يريد من اسرته وخاصته وضيوفه . ومن عادته أنه يجلس صباح كل يوم جمعة فى دار الامارة للمقابلات فيفد عليه الوالى وكبار الموظفين والاعيان والوجهاء ، وبعد السلام عليه يذهبون الى قصر الوالى للسلام عليه ، وعندما يقترب وقت صلاة الجمعة يتوجه الجميع للصلاة فى الحرم الشريف (2) .

واهتم العثمانيون أيضا بالكتب فأسسوا مكتبة عامة كبيرة فى المسجد الحرام بمكة لتكون منهلا للعلماء وطلاب العلم . ويرجع تأسيس هذه المكتبة الى السلطان عبد المجيد 1255 ـ 1278 هـ / 1839 ـ 1860 م. والذى أمر فى عام 1258 هـ / 1842 م. بتأسيس كتبخانة فى المسجد الحرام ، فارسل اليها من

(1) أحمد السباعي : تاريخ مكة ، جـ 2 ، ص 421 .
(2) محمد البتنوني : الرحلة الحجازية ، ص 48-49 .

اسطنبول 3653 كتابا مجلدا تجليدا فاخرا ، وقد وضعت هذه المكتبة في القبة الواقعة في أعلى بئر زمزم وجعل لها ناظر ومعاون ، ورتب لهما معاشات جزيلة • وقد جمعت بها أيضا بعض الكتب والمصاحف الموجودة في أروقة المسجد الحرام ، وأصبحت تعرف بكتبخانة السلطان عبد المجيد ، وعندما داهم السيل المسجد الحرام نقلت الى المدرسة السليمانية (1) • وفي عهد السلطان عبد الحميد الثاني (1293 ـ 1327 هـ) الموافق (1876 ـ 1909 م•) ، وجدت هذه المكتبة إهتماما كبيرا من عدد من حكام وعلماء مكة ، ومن الشخصيات الاسلامية في العالم الاسلامي • فقد أهديت لها مكتبة الشريف عبد المطلب • ومكتبتا الشيخ محمود حافظ ، والشيخ عبد الحق الهندي وهما من علماء مكة (2) • وكان الحجاج والزوار والعلماء من مختلف أقطار العالم الاسلامي يهدون لهذه المكتبة بعض إنتاجهم الفكري ، كما أن بعض الكتب ترد الى هذه المكتبة عن طريق الوقف أو الاهداء مساهمة في دعمها بكل نافع ومفيد من الكتب والمخطوطات الاسلامية . وفي عام 1328 هـ• / 1910 م• زارها الاستاذ محمد لبيب البتنوني وقال انها تحتوي على 4599 كتابا بين مخطوط ومطبوع ، وأنها وان كانت أصغر من كتبخانة عارف حكمت بالمدينة المنورة ، وأقل منها كتبا الا أنها جميلة ومرتبة (3) •

د• عبد اللطيف عبد الله بن دهيش
قسم التاريخ ـ جامعة أم القرى
مكة المكرمة

---

(1) سلنامة ولاية الحجاز عام 1303 هـ ، ص : 127 .
وابراهيم رفعت : مرآة الحرمين (الطبعة الأولى ، القاهرة : 1925م) جـ 1 ، ص : 183 .
(2) خير الدين الزركلي : شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز ، جـ 4 ، ص : 1035 .
(3) محمد البتنوني : الرحلة الحجازية ، ص 255 .



الحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني

الجزءان الاول والثاني

الحياة الاجتماعية في الولايات العربية

جمع وتقديم
الأستاذ عبد الجليل التميمي

منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات

زغوان 1988



La vie sociale dans les provinces arabes à l'époque ottomane

Etudes réunies et présentées par

Abdeljelil Temimi

Publications du Centre d'Etudes et de Recherches Ottomanes, Morisques, de Documentation et d'Information

Zaghouan 1988